انفتاح السرّد التّاريخي على الأدبي(دراسة نقدية ثقافية)- في نماذج من مُروّج الذّهب ومعادن الجوهر للمسعودي-

The Shift in the Historical towards the Literary - Models From the Meadows of Gold and the Metals of the Essence of Al-Masoudi

أ. زريق أحلام

قسم اللغة والأدب العربي- جامعة باجي مختار-عنابة(الجزائر)
ahlem89zerig@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/07/18 تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص:

تهدف الدّراسة إلى كشف إمكانية تعالق الخطاب التاريخي بالخطاب الأدبي، الذي هيمن حضوره على نصوص "مروج الذَّهب ومعادن الجوهر" لنخرج من دائرة التاريخية البحتة، ونقف منذ الوهلة الأولى في مواجهة النص التخييلي لا التاريخ فحسب؛ فالتاريخية تخف حدَّتها لوجود المؤشر الذي يدخل عنصر التخييل على هذا الأفق التاريخي، مما يضعنا على حافتي التاريخي والأدبي.

ننطلق في هذه الدراسة من ضبط العلاقة بين "التاريخ والأدب"، تمهيدا لاستقراء يرصد أهم انحرافات الكتابة التاريخية لدى المسعودي نحو الأدب؛ من خلال مظاهر: السرد، الزمن، الفضاء، وعلاقاتها عبر النصية التي ترسم فضاءها من خلال الشعر والأساليب الأدبية، وإيراد الخرافات والأساطير، وظاهرة التشعب والاستطراد.

الكلمات المفتاحية: التاريخ؛ الأدب؛ السرد؛ الانزياح؛ تضافر الأدبي بالتاريخي.

Abstract:

The study aims to uncover the possibility of the historical discourse being related to literary discourse, whose presence dominated the texts of “The Meadows of Gold and the Minerals of the Essence,” so that we can leave the circle of pure history, and we stand from the first glance confronting the fictional text, not just history; Historicism is diminishing its intensity due to the presence of the indicator that introduces the element of imagination on this historical horizon, which puts us on the historical and literary edge.

The study ended with controlling the relationship between "history and literature", in preparation for an extrapolation that detects the most important deviations of historical writing for Al-Masoudi towards literature.

Through manifestations of: narration, time, space, and their cross-textual relationships that draw their space through poetry and literary methods, the inclusion of myths and legends, and the phenomenon of bifurcation and digression.

Key words: History; Literature; Narration; Displacement; The conjunction of literature with history.

1. مقدمة:

يعمل المؤرخ بشكل عام على تفعيل العديد من الموضوعات والأفكار والخطابات المتاحة أمامه في سبيل إحياء المتعارضات والمتقاطعات، بل إنه لا يتردد في أداء العديد من الأدوار إن لزم ذلك، فنجده المؤرخ والأديب والفقيه واللغوي والفيلسوف، حيث تنعكس هذه الأدوار في شكل رؤى وخطابات، تجعل النص بمثابة الحقل المفتوح واسع الأفكار والخطابات دون أن ينغلق في زاوية التخصص.

على الرغم من عدم هيمنة خاصية أجناسية على الخطابات من هذا النوع إلا أنها تؤطَر ضمن هوية معرفية بعينها وهي التاريخية لكن مع وسمها بالموسوعية للإحاطة بجميع جوانبها الفكرية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا النزوع الدسم قد استقطب اهتمامنا واهتمام من سبقنا في شتى مجالات الفكر؛ للزخم الفكري الذي تعجُّ به، وأيضا لتداعي الأفكار المتنوعة ضمن شعرية أصيلة، تفرض حتمية تجاوز حدود الجنس الواحد، وهي حالة "المسعودي" و"الطبري" وغيرهما من الموسوعيين ومصنفي خطابات التاريخ والجغرافيا والفلك وكل النصوص المتأدبة، إن هذا التميز المبكر جعلنا نقف عند تساؤل مهم: هل هذه النصوص تتقصى المعرفة والحقيقة التاريخية البحتة كما ينبغي لها أن تكون، أم هي نصوص تتذرع بالتاريخي موضوعا لها لا غير ؟

وإذا كان "المسعودي" – موضوع بحثنا- المؤرخ قد وضع مصنفاته لتسجيل أحوال الأمم، فما هو مَكْمَن حسن تأليفه وبراعة تخريجه؟ وخاصة في "مروج الذهب ومعادن الجوهر "- رغم أنه مصنَف تاريخي- لماذا اكتسى هذا الأخير طابعا جماليا متعاليا على الخطابات التاريخية المعهودة؟

ومما سبق ذكره؛ نطرح الإشكالية التالية: كيف يحقق الخطاب التاريخي انزياحا نحو المتخيل الأدبي بمرجعيته التاريخية الثابتة وأبعاده الإيديولوجية دون مفارقته لهويته الأجناسية؟

تندرج تحت هذه الإشكالية جملة من القضايا التي من شأنها أن تعيننا على رصد هدفنا المعرفي: تأتي في مقدمتها العلاقة بين "التاريخ والأدب" نظرة تطورية تاريخية، ثم الانتقال إلى استقراء الخصائص الأدبية في كتابة التاريخ عند المسعودي من خلال نماذج مختارة.

2.النظرة التطورية التاريخية مقاربة نظرية :

بطرحنا الجانب التكويني للخطاب التاريخي نفترض الجانب الصناعي لهذا الخطاب الذي يضطلع بإنجازه المؤرخ من خلال انكبابه على تنسيق الأحداث المسجاة أمامه، وتنظيمها على الوجه الذي تفرضه معطيات الواقعة. "وأوجب واجبات المؤرخ – السارد- عندما يتصل الأمر بسرد تاريخي أمين إلى حد الصرامة، أن يتحلى بحساسية ما تجاه أي تغير يطال النظام، وذلك لما ينتقل من المجهود السردي في العلاقة بين الأفعال المنجزة إلى التدوين الآلي للكلمات المتلفظ بها"[1]، حيث يقف موقف الناقل والمحقق في نفس الوقت، وعمله هنا رديف لعمل السارد الذي يلتزم بالتسلسل المنطقي ولا يفارقه هذا الأخير (أي السارد) إلا في جانبه المرجعي؛ بلجوء السارد إلى المساحة الشاسعة التي تمنحها التصورات الفكرية، لذا فمجال الخيال مفتوح أمام السارد المبدع بينما هو محدود أمام المؤرخ الموثق، عند هذا المستوى من النقل يكون المؤرخ أقرب إلى العالم منه إلى عمل الأديب .

غير أن واقع النقل الذي يؤديه المؤرخ يثير فينا حقيقة كون الواقعة المطروحة ذات أبعاد إنسانية، وعندما نسميها بالإنسانية فإننا نعي تماما أنها معرفة غير ثابتة؛ لتنوع صيغ ووسائل نقل الصورة الواحدة إلى عدة قراءات وتأويلات، عندها يَنْصَّب "عمل المؤرخ (...) على وصف الأحداث التاريخية التي وقعت في أزمنة سالفة، ولم يشاهدها بنفسه"[2] ؛ أي أن المؤرخ الضليع بعمله لا يُخضِع النقل لنظام الصوغ اللغوي الجاف فقط -ما يعرِّفه ريكور بالراسب (Sedimentation)[3] – بل ويُردِفه بالحاجة إلى المبتكَر (Annovation)[4] عند ضرورة الترقيع الحدثي السردي الذي يلتقطه برهافة حِسِّه وذوقه الفني الأدبي، وهو ما يوازي صفة الحساسية كما اشترطها جينت والتي يسندها لمنظور ووعي المؤرخ.

وعليه فلاستقراء المؤرخ للسياق التاريخي وجه ذاتي مبتكَر؛ كونه يلجأ لا محالة إلى خاصية الاختيار وانتقاء الأحداث إقصاء أو إثباتا بما يفرضه المتن. وعبر دينامية إعادة البناء والترقيع السردي التي يُلزَم بها المؤرخ ينفتح التاريخ - بما لا يقبل الشك- على عوالم نصية ممثلة للواقع، فتتعالق الواقعة المرجعية بالصناعة التصويرية لتبعث مولودا هجينا ذا ملامح سردية وأخرى ثقافية، يتدارك السرد من خلالها المعرفي المترسب في العقود الماضية، ويشغل بجماليته المستمدة من السرد التجربة في طبعتها النابضة بالحياة.

من خلال هذه التيمات المركزية (المعرفة، الانتقاء، الحقيقة، الموضوعية) يتحدد دور السرد وفعاليته داخل النص التاريخي، وتُلِح هنا ضرورة تتبع مساره كنظرية ضاربة في القدم، ويعد كل من أفلاطون وأرسطو المؤسسان لهذه النظرية إثر إجراءات مقارنة التاريخ بالفن، وفي هذا الصدد يذهب أفلاطون إلى أن "عالم التاريخ، ليس إلا صورة غائمة لعالم الأفكار"[5]، والفن يعمل

على تجلي هذه الأفكار ويمنحها الاستمرار بحيوية ضمن فنية التاريخ ،إذ هو مرآة تعكس وتنقل الواقعة المترسبة لا غير، أما الفنية الشعرية فتتعدى النقل إلى إعادة بث الحياة في هذه الوقائع من جديد، وعبر رحلة البعث هذه ينشد دور الأديب الفنان، ولكي يحقق الفن أبديته يستدرك أرسطو: القدرة على تأويل الواقع، وهو في هذا يسند إلى الفن- بشقيه (السردي والدرامي)- مهمة إبداع أشكال وأنواع أكثر طواعية واستيعابا لتجارب الإنسان ومغامراته الفكرية المنفتحة.

لهذه الأسباب بالذات إحتل السرد منزلته الأنطولوجية؛ وظل مصدر من مصادر معرفة الذات والعالم، فلقد "نبعا من معين سردي واحد(...) قبل أن ينشدا الانفصال أحدهما عن الآخر، حين كانت الرواية والتاريخ معا يشتغلان بتسجيل الوقائع والأحداث، أو يفترضان وقوع الأحداث والوقائع في الماضي البعيد، على نحو يستند إلى ميثاق واحد في تقبل عملهما.

ثم صار التاريخ بعد ذلك- كما يلح ابن خلدون - يطلب ما وقع فعلا، و كما وقع، ويجتهد في طريقهما، وصارت الرواية تطلب ما يمكن أن يقع افتراضا واحتمالا وتبدع في أساليبهما"[6]؛ فخيارات الفن مفتوحة أمام الكاتب المبدع، بينما هي مغلقة أمام المؤرخ الموثق، وإذا ما ناشد التاريخ تحقيق الصدق والترقيع الحدثي في تحرِّيه، إلتحَم بفن القص لقدرته على إضاءة الزوايا المظلمة والخوض في المسكوت عنه، ومعالجته بتؤدة كبيرة وحرفية " فهو بحكم مهنته مسؤول عن أن يدون إلى جانب الأشياء العادية المعاصرة، أكثر حوادث الماضي إثارة، وأن يبتعث الجو الذي وقعت فيه تلك الحوادث"[7]؛ ومن أوجب واجبات المؤرخ الفذ عندئذ أن يستدعي من الأدب ما يعينه على استجلاب اهتمام المتلقي وتحفيز إقباله وفضوله دون أن يغادر مجال تخصصه .

إننا نقف أمام تآزر ملفت في أداء الخطابين التاريخي القصصي على حد سواء؛ " فليس النص بالشيء المغلق على ذاته، بل هو مشروع كون جديد منفصل عن الكون الذي نعيش فيه، وامتلاك عمل ما من خلال القراءة، يعني نشر أفق عالم ضمني يحتوي على الأفعال والشخصيات وأحداث القصة المروية. وبالنتيجة، ينتمي القارئ دفعة واحدة إلى أفق تجربة العمل في الخيال، وإلى فعله أو فعلها الواقعي"[8]، وفي هذا إشارة لحيوية التواصل وبالتالي آلية مشروعيته؛ فقدرة تمثيل التاريخ على جميع المستويات منوطة بقدرة الخطاب الأدبي على تمثيل الماضي وإعادة إحيائه وتأويله بل وعلى استيعاب مستجداته الثقافية، والاجتماعية على نحو ما صنع المسعودي في مؤلفه الموسوعي[9].

3. مظاهر الكتابة الأدبية في النماذج المختارة:

كان للمسعودي بصمة في تأليف التاريخ عن طريق تهجين خصائصه وفق جماليتين، الأولى تتجه نحو جمالية التراث وتعاليه؛ بإدراج العديد من الأجناس الدخيلة عليه (خبر، رسائل، خطابة، تراجم، قصص...)، وهو بهذا الفعل يحرر التاريخ من آلية النقل وجفاء الصورة كما أفصح

عن ذلك في مقدمة "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وتتمثل الثانية في جمالية الانفتاح على ثقافات العالم المتنوعة إثر رحلاته التي قام بها على مدار تأليفه للمروج، وقد علَّل به اضطراب بنائه الفني وتفككه عبر محكيات متقطعة ومستقلة عن بعضها بعض.

المسعودي كَتَبَ في التاريخ ليقيم دعائم جديدة له وليوسع في بنيته، ونسمح لأنفسنا أن نذهب إلى أن منجزه المطروح منجز إيديولوجي بالدرجة الأولى؛ ينبعث من نزعتين ثقافيتين تراثية وأخرى حداثية؛ إذ يجسد بتجربته فعالية الانفتاح على ضروب المعرفة والثقافات التي هي اليوم مدار البحث النقدي، لتتشكل ضمن قالب فني يستجيب لجماليات النثر العربي المتعالي يومها في شكله ومضمونه، عبرهما حقق النص تكامله وانسجامه الدلالي الخالد.

هذا الوعي بالتاريخ لدى المسعودي ظل مرهونا بمدى تحكمه في تقنيات اشتغال النصوص وتفاعلها، واجتماع الوعيين التاريخي والفني لديه ساهم في إقامة دعائم سرد يتجادل فيه التاريخ والفن، لذا سنتطرق إلى أوجه ذلك بالحديث عن الخصائص الفنية للسرد في نماذج من المروج وأبرزها:

1.3. لقد انتهج المسعودي في رواية أخباره أشكالا متباينة من السرد بسيطة (Minimal Narrative)[10] وأخرى مركبة[11]، مستندا في ذلك على مقومات فن القص: سرد وصف وحوار لنقل الأحداث وأفعال الأشخاص،" فلا مناص للمؤرخ من أن (...) يفترض علاقة موضوعية بين جميع السطوح التي سيصفها على مراحل مختلفة وبتقنيات متنوعة"[12]. وتجدر الإشارة إلى أن الخبر - ببنيته الخطابية البسيطة- شكل اللبنة الأساسية التي قامت عليها مختلف الأنماط الحاضرة في "المروج"[13].

2.3. نجد ثراء وتنوعا في الأصوات السردية حيث يتوزع انتماء المسعودي عبر موقعين، أحدهما خارج البنية حيث نكون- بالضرورة - أمام رؤية المسعودي؛ والسبب يعود لتاريخية المرجع، والثاني داخلها عبر تعدد زوايا النظر، وقد تجلى في قصص المسعودي" شأنه شأن الراوي في المرويات السردية الشفهية، ينتظم في نمطين: راو مفارق لمرويه ؛يتدخل دائما فيما يروي، وراو متماه بمرويه؛ يترك للمروي أن يروى دونما تدخل مباشر فيه" [14]، وهذا النوع من الحضور المزدوج لحالة الراوي يرجع إلى حفاظ السرد العربي المدون على نمط السرد الشفهي القديم رغم تدوينه.

3.3. تكسير التسلسل الزمني، واختراقه لكرونولوجيته ما يدرجه في علاقة تفاعلية وجدلية لهذا السرد، "زمن الخطاب التاريخي الكلاسيكي تسلسلي يراعي المنطق الخارجي لتتابع الأحداث، وبذلك يعطي وظيفة خاصة لهذا الخطاب تتجلى في تقديم العبرة، والاستفادة من أخبار ما مضى"[15].

أما قصص المسعودي فلا يخضعها لهذا التسلسل- وإن اتفقت في المقصدية، بل تخضع لمنطق السرد القصصي الذي يتلاعب بالزمن، فيلجأ إلى المحاور الزمنية (Segments Temporels) من

خلال وظيفتي الاستباق (Prolepses) والاسترجاع (Analepses)[16]، السرديين اللذين يعدان من أبرز خصائص الراوي المفارق لمرويه (Anachronies Narratives)[17]، فيقدم الأحداث ويؤخر فيها، ويبطىء في السرد ليسرع بعدها، كقوله في ذكر "جمل من أخبار الكهان وسيل العرم"، التي يروي فيها المسعودي قصة انهيار السد الذي بناه "لقمان الأكبر العادي" في عهد "عمرو بن عامر مزيقيا[18]؛ وهو السد الذي كان يصد عن "قوم عمرو" السيل، وكانت لعمرو زوجة كاهنة تدعى "طريفة" تكهنت بتحطم هذا السد المشهور وقدمت إشارات عن ذلك تحققت جميعا، مما بعث الدهشة والرعب في نفس "عمرو بن عامر"، فأراد الاحتراز من ذلك ودفع الضرر عن نفسه قبل فوات الأوان.

يستمر المسعودي في وصف الواقعة دون التوغل في الأحداث، مشيرا إلى تاريخ هذا السد وعظم ذكره عند أهل المنطقة، وفيها يقوم الراوي(المسعودي) بتقديم مشاهد وصفية، ثم يستأنف الحديث بقوله:" فلنرجع الآن إلى ما عنه عدلنا"، والملاحظ أن السرد في هذه القصة قد كسر الكرونولوجية التاريخية، لاعتماد سرعات متفاوتة من بطيئة جدا، عبر الوقفات الوصفية والتعليقات والاستطرادات التي تخللت القصة كقوله: "إن الرئاسة انتهت فيهم إلى عمرو بن عامر مزيقيا (...)لا يعاندهم ملك إلا قصموه ولا يوافيهم جبار في جيش إلا كسروه، فذلت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الأرض"، وأخرى سريعة جدا، في قوله " ولم يزل ولد قحطان في أطيب عيش إلى أن هلك سبأ فكان القوم بعد مضي سبأ تداولتهم الأعصار قرنا بعد قرن إلى أن أرسل الله عليهم سيل العرم؛ وذلك أن الرئاسة انتهت فيهم إلى عمرو بن عامر مزيقيا (وهو) عمرو بن عامر بن ماء السماء".

تقديم وتأخير في إيراد الأحداث،"يؤطر(...) الوحدات الحكائية التي يلحقها، بسياق أحداث سابقة عليها، وترتبط بها ارتباطا عضويا، بعبارة محددة مثل" وعدنا إلى سياق الحديث الأول، ونرجع إلى الحديث، وسنرجع إلى سياق كلامنا الأول، وعدنا إلى ترتيب الكلام" [19]، ليعود بعد استطراد شغل عددا كبيرا من الأسطر والصفحات إلى ذكر الأحداث بشكل أكثر تباطئا" يقطع (...) السرد ليعود إلى وقائع تأتي سابقة في ترتيب زمن السرد عن مكانها الطبيعي في زمن القصة"[20]، فيلخص محتوى القصة في قوله:" ولم يزل ولد قحطان في أطيب عيش إلى أن هلك سبأ فكان القوم بعد مضي سبأ تداولتهم الأعصار قرنا بعد قرن إلى أن أرسل الله عليهم سيل العرم"، ثم يرجع إلى ذكر مجريات القصة من جديد، من قوله: "وما كان من الملك في ذلك الوقت وهو عمرو بن عامر...الخ) إلى غاية نهاية القصة.

فسرده في هذا المثال يتسم بالتنوع والانفتاح والمراوحة بين الماضي المنتهي إلى الحاضر المستمر إلى الطلب والأمر؛ والملاحظ أن المسعودي قد تجاوز خطية الزمن الكرونولوجية

التاريخية، واعتمد على سرعات متفاوتة؛ بطيئة جدا من خلال الوقفات الوصفية(Pauses Déscriptives) والتعليقات والاستطرادات التي تخللت القصة الى السريعة جدا من خلال التلخيصات.

4.3. الأمكنة المنفتح(Lieuxouvert) : وهي أمكنة تفتقد لصفة التاريخية التي تتسم بها الأماكن الواقعية، وتُستغَل عادة "لخلق عالم خيالي محض"[21]، وكخلفيات لأحداث عرفت لكن جُهِلَت أمكنتها، وهذا يدخل ضمن فعاليات المعالجة الفنية للوقائع التاريخية، إذ الأصل في التاريخ العناية الفائقة بتحديد: الحدث، زمانه، ومكان وقوعه، ومن بين الأمكنة المتخيلة التي حضرت في قصص "المروج" بشكل مبالغ فيه نذكر: الجبل، البحر، الصحراء، السماء، الوديان...الخ.

كما في قصة أمية بن الصلت[22]، التي تروي قصة كتابة "باسمك اللهم" إذ يروي قائلا: "وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس، و أخبار من سلف– كابن دأب، و الهيثم ابن عدي، وأبي مخنف لوط بن يحي، ومحمد بن السائب (الكلبي)– أن السبب في كتابة قريش، واستفتاحها في أول كتبها " باسمك اللهم " هو أن أمية بن الصلت الثقفي خرج إلى الشام في نفر من ثقيف قريش في عير لهم، فلما قفلوا راجعين، نزلوا منزلا واجتمعوا لعشائهم؛ إذ أقبلت حية صغيرة حتى دَنَت منهم، فحصبها بعضهم بشيء في وجهها فرجعت، وشدوا سفرتهم ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم؛ فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصى لها، فقالت: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية المسيكنة التي جاءتكم عشية؟" قالوا ومن أنت؟ قالت: أم العوام، أوتمت منذ أعوام، أما ورب العباد، لتفرقن في البلاد، ثم ضربت بعصاها الأرض، فأثارت بها الرمل، وقالت: أطيلي إيابهم ونفري ركابهم، فوثبت الإبل فكأن على ذروة كل بعير منها شيطانا، ما نملك منها شيئا، حتى افترقت في البوادي؛ فجمعناها من آخر النهار إلى غد.

ولم نكد فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز فعادت بالعصا كفعلها أولا، وعادت بمقالتها: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية اليتيمة؟ ألا أطيلي إيابهم ونفري ركابهم، فخرجت الإبل ما نملك منها شيئا فجمعناها من آخر النهار إلى غد ولم نكد؛ فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ففعلت مثل فعلتها في الأولى و الثانية، فتفرقت الإبل و أمسينا في ليلة مقمرة ويئسنا من ظهورنا فقلنا لأمية بن الصلت :أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟ فتوجه إلى ذلك الكثيب الذي كانت تأتي منه العجوز، حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه، ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل، وإذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية؛ قال أمية : فلما وقفت عليه رفع رأسه إلي وقال :"إنك لمتبوع"، قلت: أجل، قال فمن أين يأتيك صاحبك؟" قلت: "من أذني اليسرى " قال :" فبأي الثياب يأمرك ؟ " قلت :" بالسواد "، قال: "هذا خطب الجن كدت ولم تفعل، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه في أذنه اليمنى، وأحب الثياب إليه البياض، فما جاء بك وما

حاجتك؟ فحدثته حديث العجوز قال: «صدقت، وليست بصادقة هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لن تزال تصنع ذلك بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت، قال أمية: فما الحيلة؟ قال: اجمعوا ظهوركم فإذا جاءتكم ففعلت ما كانت تفعل فقولوا: سبعا من فوق وسبعا من أسفل باسمك اللهم، فإنها لا تضركم.

فرجع أمية إلى أصحابه، فأخبرهم بما قيل له؛ فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل، فقالوا سبعا من فوق وسبعا من أسفل، باسمك اللهم، فلم تضرهم، فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت: "عرفت صاحبكم، ليبيضن أعلاه، وليسودن أسفله، وسِيروا؛ فلما أدركهم الصبح نظروا إلى أمية قد برص في عذاريه و رقبته وصدره، وأسوَّد أسفله، فلما قدِموا مكة ذكروا هذا الحديث، فكان أمية أول من كتب من أهل مكة "باسمك اللهم " إلى أن جاء الله الإسلام فرفع ذلك و كتب : (بسم الله الرحمان الرحيم)، وله أخبار غير هذا قد آتينا على ذكرها في كتابنا في" أخبار الزمان "وغيره مما سلف من كتبنا.

وفي هذه الحكاية لم يتعرض المسعودي إلى تحديد الفضاء الذي جرت فيه الأحداث كما كان يفترض به أن يفعل، كونه مؤلِف تاريخي بالدرجة الأولى، وهنا نلمس انزياحا من صفة التاريخية - التي كان من المفترض أن تطغى على العمل- إلى صفة الأدبية التي طغت على هذه القصة وغيرها من القصص والأخبار في كتاب "المروج".

5.3. الشخصيات المتخيلة(Personnages de fiction)؛ ابتدعها المسعودي لتساعده في تفعيل الشخصيات التاريخية أولا، ولكي يقلص من الضغط الذي تمارسه الشخصيات التاريخية على السارد، كونها محددة بملامح ومعطيات لا يمكن للراوي تجاوزها، ونورد شخصية "أبو الخيبرى" في قصة حاتم طيء[23] كنموذج خلق فيه المسعودي هذه الشخصية لتفعيل حركة السرد داخل متن قصة " حاتم طيء "إذ يروي قائلا"، وحدث يحيى بن عتاب والجوهري (قالا حدثنا علي قال) أنبأنا عبد الرحمان بن يحيى المنذري عن أبي المنذر هشام الكلبي قال: حدثني أبو مسكين ابن جعفر بن محرز بن الوليد عن أبيه وكان مولى لأبي هريرة قال: سمعت محمد بن أبي هريرة يحدث، قال: كان رجل يكنى أبا الخيبري مرَّ في نفر من قومه بقبر حاتم طيء فنزلوا قريبا منه، فبات أبو الخيبري يناديه: أبا الجعد أقرنا أقرنا، فقال له قومه: مهلا ما تكلم من رمَّة بالية! قال : إن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قراه، وناموا.

فلما أن كان في آخر الليل قام أبو الخيبري مذعورا فزعا ينادي : واراحلتاه ! فقال أصحابه: ما بالك؟ فقال: خرج حاتم من قبره بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتي، فقالوا: كذبت ونظروا إلى ناقته بين نوقهم منجدلة لا تنبعث؛ فقالوا: قد والله قراك، فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخا حتى أصبحوا، ثم أردفوه وانطلقوا سائرين؛ فإذا راكب بعير يقود آخر قد لحقهم فقال : أيكم أبو

الخيبري؟ فقال أبو الخيبري: أنا ذاك، قال: أنا عُدَّي بن حاتم وإن حاتما جاءني الليلة في النوم ونحن نزول وراء الجبل، فذكر شتمك إياه، وأنه قرَّى براحلتك أصحابك وأنشدني يقول في شعره :

أبا البختري لأنت امرؤ ظلوم العشيرة شتَّامها

أتيت بصحبك تبغي القرى لذي حفرة صدحت هامها

أتبغي لي الذم عند المبيت وحولك طيء و أنعامها

فأنا سنشبع أضيافنا ونأتي المطي فنعتامها

وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه"، وشخصية البطل قد اتصفت بكونها مجهولة الهوية :" كان رجل يكنى ابو الخيبري"، فلم يحدد لا من أي قوم هو، ولا وجهتهم بقوله" مر في نفر من قومه بقبر حاتم طيء"، علاوة على هذا فالشخصية لم تحدد ملامحها ولا صفاتها، فلم نعلم عنه إلا كنيته، وطمعه في ضيافة رِمَّة حاتم طيء البالية.

6.3. شعرية السرد في قصص المسعودي: أي "الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي"[24]؛ ولعل السبب في اعتماد هذا اللون عدم الاكتفاء بالمعنى وحده، والبحث عن إحالة خاصة داخل العلاقات اللغوية الداخلية، وهذا ما نصطلح عليه "علم البيان"، وبالعودة إلى مقدمة الكتاب يفصِّل المسعودي سبب تفضيله للشعريات العربية المتعالية [25]، والسرد لديه عند ذلك يتشرب في صيغته النثرية جوهر الشعر وأسلوبه وصوره، حيث يُلِّح على" تقنيات وأساليب من صوغ جمالي ورؤية معبرة تتقاطع في نسجها أنساق الذاتي واللاشعوري والتاريخي"[26]، فينفتح على عوالم جديدة تكسبه الثراء والتنوع التي تُكسِبُه قوة التأثير.

إن الاستغلال المتقن لما ذكرنا يتطلب من صاحبه التحلِّي بالذوق الرفيع والدُربَة، ولا يخفى عنا أن المسعودي قد امتلك- إضافة إلى شعرية مسروده- ميلا واهتماما خاصين بإيراد المقاطع الشعرية في حد ذاتها، قصد الاستشهاد بها (Fonction Testimoniale)، مؤيدا أو رافضا لقضية من القضايا المعروضة. والشعر من أهم وسائل تأكيد صحة المادة الإخبارية التي يحملها القصاصون – عادة- ونؤكد على صفة القصاصين وليس المؤرخين، على اختلاف نواياهم، فقد مثّل ولا يزال يمثل رافدا غنيا بالمعاني الموحية والأساليب الراقية، "فهذا الشعر لم يوجد منفصلا عن الخبر وإنما صنعه الرواة ليجعلوا منه برهانا على صحة ما يسوقونه في الأخبار "[27]، ويُقَسِّمْ محمد القاضي هذه العلاقة إلى قسمين: الخبر خادما للشعر والخبر مستخدما الشعر.

ومن هذا المنطلق فإن الكثير من الشعر الذي ورد في كتاب "مروج الذهب" يلعب دورا هاما ومتنوعا نذكر منه: قوله في خبر عن إحدى الجواري :"حدثنا الطوسي و الأموي الدمشقي وغيرهما عن الزبير بن بكار عن عبد الله المزني قال: كان بالمدينة فتى من بني أمية من ولد عثمان، وكان ظريفا، وكان يختلف إلى قينه لبعض قريش، وكانت الجارية تحبه ولا يعلم، ويحبها ولا تعلم، ولم

تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا لفاحشة؛ فأراد يوما أن يبلوَ ذلك، فقال لبعض من عنده : امض بنا إليها؛ فانطلقا ووافاهما وجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهم، وما كان فيهم فتى يجد بها وجده ولا تجد بواحد منهم وجدها بالأموي؛ فلما أن أخذ الناس مواضعهم قال لها الفتى : أتحسنين أن تقولي:

أُحِبُكُمْ حُباً بِكُلِ جَوَارِحـــي فَهَلْ عِندَكُمْ عِلْم بِمَا لَكُمْ عَنْدِي ؟
أَتُجْزَوْنَ بِالودِ المُضَاعَفِ مِثْلَـهُ فَإِنَ الكَرِيمَ مَنْ جَزَى الوِّدَ بِالْـودِ؟

قالت: نعم وأحسن أحسن منه؛ فقالت:

لِلَّذِي وَدَّنَا المَوَدَة بالضِعْ فِ وفَضْلُ البَادِي به لا يُجَـازَى
لَوْ بَدَا مَا بِنَا لَكُمْ مِلَأْ الأَرْ ضِ و أَقْطَارُ شَامِهَا الحِجَـــازَا

قال فعجب الفتى من ذهنها مع حسن جوابها وجودة حفضها، فازداد كلفا بها فقال :

أَنْتِ عُذْرُ الفَتَى إِذْ هَتَكَ السِتْ رَ وإِنْ كَانَ يُوسُفَ المَعْصُومَا ...."[28]

فالشعر الوارد في هذا النموذج ورد كلغة حوار جمعت بين شخصيتي الخبر المروي دون أن تكون خادمة له، مفعلة لخطاباته وأحداثه، مساهمة في صنع حبكته، وهو دور لا يقل أهمية عن دور الوصف والسرد في بناء المتن .

كما وأن الكثير من أخبار المسعودي تزينت بالشعر دون أن يكون جوهريا في سياق أحداثها، ولم يتعدى دورها دور تكثيف العبارة والرمز، من ذلك قوله عن أبي العيناء[29]: حيث أنه " دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة ست وأربعين ومائتين؛ فقال له : كيف قولك في دارنا هذه ؟ فقال: إن الناس بنو الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك؛ فاستحسن ذلك، ثم قال له: كيف شربك للنبيذ؟ فقال: أعجز عن قليله وأفتضح من كثيره، فقال له، دع هذا عنك ونادمنا، قال: أنا امرؤ محجوب والمحجوب تتخطرف إشارته ويجور قصده وينظر منه مالا ينظر إليه، وكل من في مجلسك يخدمك وأنا أحتاج أن أُخْدَمَ(...) فقال: بلغنا عنك بذاء، قال: يا أمير المؤمنين، قد مدح الله وذم فقال:" نعم العبد إنه أواب" وقال جل ذكره:" هماز مشاء بنميم" الآية؛ وإن لم يكن البذاء بمنزلة العقرب تلدغ النبي واليهودي فلا ضير في ذلك؛ وقال الشاعر:

إِذاَ أَنَا بِالْمَعْرُوفِ لَمْ أَكُ صَادِقًـا وَلَمْ أَشْتُمِ النِّكْسَ اللَّئِيمَ المُذَمَّمَا
فَفِيمَ عَرَفْتَ الخَيْرَ و الشَّرَ بِاسْمِهِ وشَقَّ لِي الله المَسَامِعَ و الفَمَا "[30]

ومن الملاحظ على شعر هذه القصة أنه لم يتجاوز دوره دورا توشيحيا (Décorative، Ornementale) استعان به"أبو العيناء" لإثبات موقفه لا غير.

ومن بين الأدوار التي لعبها الشعر أيضا تفسير الأقوال والمواقف والعواطف وشرحها، يلجأ إليه المسعودي تدعيما لبعض الحقائق بإدراج شواهد من الشعر على بعض الحقائق، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عن المقتدر بالله[31]:" وكان عبد الله ابن المعتز أديبا بليغا شاعرا مطبوعا مجودا مقتدرا على الشعر قريب المأخذ سهل اللفظ جيد القريحة حسن الاختراع للمعاني؛ فمن ذلك قوله:

تَقُولُ العَاذِلاَتُ: تَعَزَّ عَنْهَا واطْفِ لهيب قلبك بالسُلُّوِ

وقوله :

ضعيفة أَجْفَانُهُ والقَلْبُ منه حَجَرُ
كَأَنَّمَا أَلْحَاظُهُ من فِعْلِهِ تَعْتَـذِرُ [32]

ففي المثال حضر الشعر إثباتا لإجادة الشاعر وصفاء قريحته.

- استعان المسعودي بالشعر أيضا وبخاصة منه القديم لأداء وظيفة تعليمية (Didactique)، فلا يكاد "يخلو(...) من أسماء أماكن وتلميحات إلى بعض الظواهر الجغرافية، نذكر منها على سبيل المثال قول بشار بن برد في الرافدين :

الر افدان تَوَافَى مَاءُ بَحْرِهِمَا إلى الأَبْلَةِ شُرْبًا غَيرَ مَحظُور

وقول أبو أسماء سعد بن بكر بن هوازن متفاخرا :

نحن كنا الملوك من أهل نجد وحُمَاة الذِمَارَ عِند الدَّمَارِ
ومنعنا الحجاز في كل حي فمنعنا الفجار يوم الفجار " [33]

وهي أبيات تحمل إشارة واضحة إلى واد الرافدين وبعض صفاته، وكيف كانت العرب تفتخر به، واستغله أيضا لإيضاح بعض المعتقدات الخرافية وتفنيدها، ومثال ذلك ما ذكر من "أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا هو مات أو قتل لم يزل مطيفا به متصورا له في صورة طائر يصدح على قبره مستوحشا له " وأن هذا الطائر المسمى "هاما" يخبر الميت بما يحدث بعده، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هَامِي تُخْبِرُنِي بما تَسْتَشْعِرُوا فَتَجَنَّبُوا الشَّنْعَاءَ و المَكْرُوهَا [34]

رحلات المسعودي العديدة جعلته يَطَّلع على ثقافات متنوعة وقديمة جدا، احتاج في إيرادها إلى الإيضاح، فأورد كل ما يمكنه أن يعينه على ذلك ويأتي الشعر في مقدمتها.

يلاحظ على المسعودي في هذا الإطار ميله إلى أغراض شعرية معينة كالرثاء والزهد والحكمة، وما يتصل بذلك من الأشعار، ويضيف سليمان بن عبد الله المديد السويكت أن المسعودي يفضل شعراء ويستحسن أشعارهم دون غيرهم "كأبي تمام وأبي العتاهية، وابن الرومي، ويمكن أن يعزى ذلك إلى أن المسعودي كان يفضل الأشعار التي تتناول الحقائق وتتسم بالواقعية كما يلاحظ من الطابع العام لأشعار انتقاها لهؤلاء الثلاثة "[35]، مثل ما أورده في حديثه عن المكتفي

بالله، مشيرا إلى تأثره بهذه الأبيات وهو حديث أورد فيه أبيات شعرية كثيرة تنقل مدى بلاغة المكتفي، ورهافة حسه، ومشيرا إلى تأثره بهذه الأبيات يذكر المسعودي: "ومما أجاد فيه في وصف القناعة قوله:

إذا ما شِئْتَ أَنْ تَـــعْ لَمَ يوماً كَذِبَ الشهـــوَهْ
فكُلُّ مَا شِئْتَ يصــدرْكَ عن المُرَّةِ و الحُلْـــوَهْ
وَطَأْ مَا شِئتَ يحصــنْكَ عن الحسناء في الخلــوَهْ
وكم أنساك ما تهـــوا هـ نَيْلُ الشيء لم تَهْــوَهْ[36]

إن الزخم الشعري الذي أثَّث به المسعودي كتابه المروج، قد عكس خاصية إدراك اللغة والتفقه فيها، مما أتاح له استعمالات جديدة ممتنعة عن المؤرخ رصَّع بها مؤلفاته جميعا، قصد بها خلق شعرية متفردة به يتعالى بها عن الخطاب التاريخي المعهود .

7.3. خاصية الإضمار: وهي خاصية شاعت في السرد القديم عامة وفي سرد المروج خاصة،" إذ يضمر الفعل الحكائي ويستعان بالتعبير عنه جملة، تجنبا لروايته بالتفصيل الذي حدث فيه"[37]، ونستدل على هذا النوع من السرود بقصة التنين[38]، التي يقول فيها "وقد اختلف الناس في التنين : فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم، وهو الجو، فتلحق بالسحاب كالزوبعة، إذا صارت قريبة من الأرض استدارت فأثارت معها الغبار [وهشيم الأرض والنبات]، ثم استطالت في الهواء ذاهبة الصعداء توهم الناس أنها حيات سود قد ظهرت من البحر لسواد السحاب وذهاب الضوء و ترادف الرياح .

ومنهم من رأى أنها دواب تتكون في قعر البحر، فتعظم وتؤذي دواب البحر، فيبعث الله عليها بالسحاب الملائكة فتخرجها منه، على صورة الحية السوداء لها بريق و بصيص، لا يمر ذنبه بشيء إلا بمدينة إلا أتى عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل، وربما يتنفس فيجرف الشجر الكثير فيلقيه السحاب في بلد يأجوج ومأجوج ويمطر السحاب عليه البرد فيقتله، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج وهذا قول يعزى إلى ابن عباس.

وقد ذكر في التنين غير ما وصفنا، وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أمورا فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها، من أنها حيات سود تكون في الصحاري والجبال فتجرفها السيول ومياه الأمطار فتقذفها في البحر فتتغذى من دواب البحار فتعظم أجسامها فتطول أعمارها؛ فإذا انتهى الواحد منها في العمر خمسمائة سنة غلب على دواب البحر، وذكروا نحو ما قدمنا من خبر ابن عباس وأن منها سودا وبيضا على قدر الحية في نفسها.

والفرس لا تنكر كون التنين في البحر وتزعم أن له رؤوسا سبعة وتسميه الأجدها وتضرب بها أخبارها الأمثال، والله أعلم بكيفية ما ذكرنا؛ والأخبار في هذه المعاني تأباها كثير من النفوس ولا

تقبلها الكثير من العقول(...) وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ولا واجب وهو داخل في حيز الممكن والجائز؛ لأن طريقه في النقل طريق الأفراد والآحاد ولم يرد مجيء التواتر من المخبرين والاستفاضة من الأخبار الموجبة للعلم والعمل، القاطعة للعذر في النقل.

فإن قارنتها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها والانقياد إلى ما أوجب الله علينا من أخبار الشريعة والعمل بها (...) فإن لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا آنفا ما ذكره الناس في ذلك؛ وإنما ذكرنا هذا ليعلم من قراء الكتاب أنا قد اجتهدنا فيما أوردنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ولم يعزب عنا فهم ما قاله الناس في سائر ما ذكرنا وبالله التوفيق"، وقد أورد المسعودي كما اتضح جملة مما رُوِي من أخبار عن هذا الكائن الغريب والتي جمعها ضمن مقاطع سردية بسيطة غير مفصلة تتناول نشوء هذا الكائن وطريقة عيشه وفنائه مع ارفادها بتعليقات توضيحية حول ما سرده على غرابته وعلة ذلك.

8.3. إن السرد الحكائي في قصص المروج، إنما ينمو ويتطور بأحداثه المروية على اختلاف مواضيعها، واختلاف أمكنتها وأزمنة حدوثها، كون عملية الفهم تتم من خلال معايشة التجربة التي قصد إلى توصيلها أو مخالطة من عايشوها أو تناقلوا أخبارها، وفي هذا النقل استمد عرضه الذي أحيا التجربة من جديد، وبعث فيها حركية الحياة ونبضها، "فالسرد ينساب من تلقاء ذاته، وألا شيء أكثر طبيعية من رواية قصة أو تنظيم مجموعة من الأفعال في أسطورة ،وفي حكاية خرافية، وفي ملحمة، أو في رواية"[39].

والمسعودي لم يلجأ إلى طريقة واحدة عند سرده الأحداث وإنما التنويع وفقا لما تقتضيه الضرورة السردية، على أن البنى المشكلة لخطابه لا تتجاوز أربعة أنواع تكشفت على مدار صفحات المروج وهي: العنصر التاريخي، العنصر الخرافي، العنصر العقائدي، العنصر العلمي؛ والنزعة التاريخية ليست إلا إطار عاما للبناء التاريخي الذي ستلعب فيه الخوارق والحقائق دورا متفاوتا لا يستهان به، فهو لا يكتفي بإيراد الواقعي والحقيقي من الأحداث والأخبار؛ بل ينزع نزوعا شاذا عن المؤرخ إلى الأديب الذي يدرك حاجة المتلقي إلى الاستمتاع بما يقرأ ويسمع.

9.3.التمويه الأسلوبي: من خلال عبارات موجزة تتصدر القصص من مثل: لا أذكر، لعلها، يُحكى، بلغني، زعموا، قال صاحب الحديث...الخ، فالاستهلال السردي إطار لا غنى عنه "ينظم عملية الرواية والتلقي معا"[40]، وهذا النوع من الاستهلال يثير في ذهن المتلقي أنشطة قرائية تستدعي منه تفعيل التحليل والتأويل لما سيتلقاه، فينفتح على الغريب والعجيب بالضرورة، وعمل المسعودي إذ ذاك حليف الشاعر والأديب لا حليف المؤرخ المقيد بأطر الواقع وثوابته.

10.3. إن بنية بعض القصص لدى المسعودي تتميز بكونها متداخلة؛ فهو يورد داخل الباب الواحد جملة من الأبواب الثانوية التي تنتظم ظاهرا وفق نسق كرونولوجي، إلا أنها تنزع إلى تداخل

الأحداث والأخبار والقصص، بل وفي داخل القصص نفسها على نحو أدبي، كقوله في قصة "طسم وجديس"[41]، إذ عمد المسعودي إلى ذكر القصة ضمن باب"ديانات العرب وآرائها في الجاهلية وتفرقها في البلاد وخبر أصحاب الفيل وعبد المطلب، يذكر نسب "طسم" وانحدارهم وعلَّة سكناهم البحرين، ثم يأخذ في رواية قصتهم مع "جديس"، لتأخذ الأحداث في التعقد، بفرار "رياح بن مرة الطسمي" تظهر شخصيات جديدة وأحداث مختلفة، هدف مختلف، فضلا عن الاستطراد والوقفات الوصفية التي تتخلل السرد من حين لآخر، بذلك يتسم الأثر بالتداخل والتعقيد.

11.3. اشتمل كتاب المروج على بعض المقاطع السيرية التي تتناول قصص بعض العظماء، ومن بقي لهم ذكر على مدار الأيام، وتصنيفنا إياها في خانة الأدب السيري راجع إلى توفر هذه المقاطع على خصائص بنية الشخصية السيرية من: "نبوءة، الأصول النبيلة، الانتساب، الغربة، الاختبار، الاعتراف بالبطل، المعارضة الضيقة، المعارضة العامة، المعاضدة، الخوارق والسحر، الانتصار، العزلة والموت، التوريث "[42].

كما في قصة إبراهيم عليه السلام يقول:" لما قبض الله ناخور قام بعده تارح وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام، وفي عصره وكان في الأرض هرج عظيم من حروب وإحداث كور وممالك بالشرق والغرب وغير ذلك، كان نمرود أحدث في الأرض عبادة النيران والأنوار وجعل لها مراتب في العبادات، وظهر القول بالنجوم وأحكامها وصورت الأفلاك وعملت الآلات وقرب فهم ذلك إلى قلوب الناس؛ فنظر أصحاب النجوم إلى طالع السنة التي ولد فيها إبراهيم عليه السلام وماذا يوجب، فأخبروا النمرود أن مولودا يولد، يسفه أحلامهم ويزيل عباداتهم، فأمر النمرود بقتل الولدان وأخفي إبراهيم في مغارة، ومات آزر وهو تارح، وكان عمره إلى أن قبضه الله مائتين وستين سنة.

ولما نشأ إبراهيم وخرج من المغارة التي كان بها وتأمل آفاق الأرض والعالم وما فيه من دلائل الحدوث والتأثير، نظر إلى الزهرة وإشراقها، فقال ﴿هذا ربي﴾؛ فلما رأى القمر أنور منها قال، قال﴿هذا ربي﴾؛ فلما رأى نور الشمس بهره ما رأى، قال﴿هذا ربي﴾؛ وقد تنازع الناس في قول إبراهيم: ﴿هذا ربي﴾؛ فمنهم من رأى أن ذلك منه على طريق الاستدلال والاستخبار، ومنهم من رأى أن ذلك كان منه قبل البلوغ وحال التكليف، ومنهم من رأى غير ذلك؛ فأتاه جبريل، فعلمه دينه، واصطفاه الله نبيا وخليلا، كان أوتي﴿رشده من قبل﴾ومن أوتي رشده فقد عصم من الخطأ والزلل وعبادة غير الواحد الصمد؛ فعاب إبراهيم على قومه ما رأى في عبادتهم واتخاذهم المنحوتات آلهة لهم؛ فلما ذكر عليهم ذم إبراهيم لآلهتهم واستفاض ذلك فيهم، اتخذ له النمرود نار وألقاه فيها؛ فجعلها الله عليه ﴿بردًا وسلامًا﴾ وخمدت النار في سائر بقاع الأرض في ذلك اليوم...فلما ولد إسماعيل لإبراهيم من هاجر غارت سارة.

فحمل إبراهيم إسماعيل وهاجر إلى مكة واسكنهما بها؛ وبذلك أخبر، جل ثناؤه، مخبرا عن إبراهيم :﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾؛ الآية؛ فأجاب الله دعوته وآنس وحشتهم بجرهم والعماليق وجعل ﴿أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ وأهلك الله قوم لوط في عهد إبراهيم عليه السلام لما كان من فعلهم واتضح من خبرهم. ثم أمر الله إبراهيم أن يذبح ولده؛ فبادر إلى طاعة ربه ﴿وتله للجبين﴾، ففداه الله ﴿بذبح عظيم ﴾ورفع﴿ إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾؛ ثم ولد لإبراهيم من سارة إسحاق وذلك بعد مضي عشرين ومائة سنة من عمره..." [43].

وهي ثوابت أساسية في أدب السيرة، ومؤدى هذا الكلام أن التاريخ يستقبل محمولا غريبا عنه وهو أدب السيرة؛ أي أن النص التاريخي عنده لم يكن خالص الانتماء للتاريخ.

12.3. تنوع أسس الكتابة القصصية عند المسعودي : فمعظم قصصه تراوحت بين الكتابة الإبلاغية المقتبسة، والكتابة التحويرية حسب ما تقتضيه الحاجة، وحسب الموضوع المطروح؛ لذا لم تكن المادة التي نقلها المسعودي مجموعة أوصاف لوقائع أو شهادات أو حوادث انحدرت إليه عبر سلسة متصلة من الرواة الثقاة كما أفصح، وإنما كانت المادة التي نقلها المسعودي منذ البداية تأليفا قام به في عهد لاحق.

وهكذا كان تأريخه قصا- في أغلب الأحيان- فهو متماسك فنيا؛ وعلة التحوير والتأليف جملة أسباب نذكر منها: الاعتماد على شواهد مادية، والشاهد هنا" مسكوك، نصب تذكاري، آنية، قطعة نسيج، قصائد وأمثال...الخ "[44]، أو شفوية كرواية قديمة أو حديثة، أسطورية أو علمية تصل هذه الأخيرة إلى راويها بطرق متنوعة كالرحلة والاستكشاف وجمع الأخبار، فألزم نفسه بنقلها، بأسلوب ورؤية تتلاءم وثقافة العربي آنذاك.

على أن ما حواه المروج وما أورده من معلومات تاريخية، جغرافية، علمية واجتماعية تحرَّى فيها المسعودي الدِّقة في التوثيق والتمحيص- قدر الإمكان- وخاصة منها الفترة الإسلامية؛ إذ عرفت توثيقا واسعا من جميع النواحي على خلاف أخبار العصور الغابرة .

4. خاتمة:

ناقشت هذه الدراسة تعدد الأدوار التي يؤديها المؤرخ، وأفضت إلى اتسام السرد التاريخي لدى المسعودي بسمة الهجنة، لأنه ينفتح على أشكال عديدة من الخطابات والمعارف كالأدب والجغرافيا والفلك وعلوم الطبيعة والأساطير..إلخ. ولقد تتبع هذا البحث تضافر الأدب والتاريخ في نماذج من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر من خلال عينات منه، ولقد اتضح أننا أمام:

- شكل سردي يتميز بتعدد أصواته السردية .
- من خصائص خطابات المسعودي أنها متنوعة الصيغ إما بالتقرير أو الرسالة أو السيرة...الخ.

- تتضح تجليات الأدبي لدى المسعودي أساسا في كل ما اقترن بالذاكرة، والملل والنحل والمعتقدات المختلفة، إضافة إلى مزجه الخطاب المبتدع بالشعر، فيتجاوز المألوف، ويثقله بالدلالة المكثفة.

- إعادة خلق الأجواء وشحنها بالصور الملائمة والحركية والتواتر، باستغلال تقانات السرد (التقديم والتأخير، الإيجاز والبطء، المجاز والحذف...الخ)، الحوار، الوصف التي يمثل عمود النمط القصصي.

- الشخصيات الحاضرة في قصص المسعودي - وبخاصة في النماذج المختارة - تتسم بالتنوع من مرجعية إلى شبه مرجعية إلى متخيلة.

- المسعودي يلجأ إلى الأماكن المنفتحة والمتسعة التي من شأنها تضخيم الأشياء وتهويلها وتفتح باب التأويل أمام القارىء.

- إن مجمل نصوص المسعودي ضمنية الفضاء، وخاصة ما تعلق منها بقصص البدء والتاريخ الضارب في القدم، إلى القصص التي تتناول المعتقدات الدينية والثقافات الشعبية مما يعزز اتساع النص وعمق خطابيته التراثية وتعاليه عن التجنيس . وبالتالي خروجه عن أهم دعائم الكتابة التاريخية التي تحفل بتحديد المكان والزمان.

وعطفًا على ما سبق، فقد قادنا التوجه إلى إعادة استقراء النصوص التراثية وفق مرجعية نظرية مستحدثة إلى الكشف عن كون التراث العربي حقيقةً متعال؛ كونه تضمن بوادر لملامح النظريات النقدية الغربية وحتى ما يعرف بالدراسات الثقافية (كما اتضح حتى مع المسعودي)، وهو ما يجعلني أُشجِع الباحثين اليوم على الإقبال عليه واستقرائِه لأنه يُنبِئ عن نتائج بالغة الأهمية، تأتي في مقدمتها الكشف عن بوادر فكرية جوهرية وذات امتداد إيديولوجي حتى على المستوى الغربي الذي استنار به ليكون امتدادا له كما كشفت عن ذلك سيغريد هونكه[45] ومايكل هارت[46] وغيرها من المؤلفات .

5- الهوامش:

[1] جيرار جينيت، طرائق تحليل السرد(حدود السرد)، منشورات إتحاد كتاب المغرب ، الطبعة الأولى،1992ص 74.

[2] محسن محمد حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، مطبعة موكرياني، الطبعة الأولى، 2012، ص 35.

[3] بول ريكور، الوجود والزمان والسرد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999، ص45.

[4] بول ريكور، نفس المرجع، ص 45.

[5] عبد العليم عبد الرحمان خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر(سلسلة المنهجية الإسلامية)، الطبعة الثالثة،1996، ص ص60، 61.

[6] عبد السلام أقلمون، الرواية والتاريخ ،دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2010،ص 24 .

[7] عبد العليم عبد الرحمن خضر، مرجع سابق، ص 30.

[8] بول ريكور، مرجع سابق،ص 47 .

[9]أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، عفيف نايف حاطوم، دار صادر، الطبعة الثانية، 2010.

[10] جيرالد برانس، قاموس السرديات، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الثالثة، 2003، ص 112.

[11]جيرالد برانس، نفس المرجع، ص 35.

[12] عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005،ص 190.

[13]أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، ص ص 47- 48، الجزء الثاني، ص 29- 53.

[14] عبد الله إبراهيم، السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1992، ص ص 144،143.

[15] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005، ص 147.

[16]جيرار جينيت، خطاب الحكاية(بحث في المنهج)، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 1997،ص61 - ص76.

وانظر أيضا:

Gérard Ginette, Figures 3, éditions du seuil, Paris,1972 ,p82 - p106.

[17] عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص ص 145 ،146.

[18]أبو الحسن المسعودي، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 66- ص73 .

[19] عبد الله ابراهيم ، مرجع سابق، ص 147.

[20] حميد الحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، المركز الثقافي الغربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1991، ص 74.

[21] لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، 2002، ص 128.

[22] أبو الحسن على المسعودي، الجزء الأول، مرجع سابق،ص ص47، 48.

[23] أبو الحسن على المسعودي، الجزء الثاني، مرجع سابق،ص ص52، 53.

[24] تزفيتان تودوروف، الشعرية، دار توبقال، 1987، ص 84.

[25] أبو الحسن على المسعودي، الجزء الأول، مرجع سابق،ص03.

[26] شعيب حليفي، بلاغة الصورة في السرد (دينامية القراءة و التأويل)، الملتقى الدولي حول السرديات، المركز الجامعي بشار، نوفمبر 2007، الجزائر.

[27] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي(دراسة في السردية العربية)،دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، 1998، ص582.

[28] أبو الحسن المسعودي، الجزء الثالث، ص ص 15، 16.

[29] أبو الحسن المسعودي، نفس المرجع، ص 375.

[30] أبو الحسن المسعودي، نفس المرجع، ص 375.

[31] أبو الحسن المسعودي، الجزء الرابع، مرجع سابق، ص ص05، 06.

[32] أبو الحسن المسعودي، ص ص 05، 06.

[33] محمد وهيبة،جغرافية المسعودي، دار المعارف،1995،ص45.

[34] سليمان بن عبد الله المديد السويكت، منهج المسعودي في كتابة التاريخ، ص ص 297، 298 .

[35] سليمان بن عبد الله المديد السويكت، نفس المرجع، ص ص298، 299 .

[36] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص 410.

[37] عبد الله إبراهيم، مرجع سابق، ص 109.

[38] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 92- ص94.

[39] جيرار جينيت، مرجع سابق، ص71.

[40] جيرار جينيت، نفس المرجع، ص 196.

[41] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، الجزء الثاني، ص 29 - ص34.

[42] عبد الله إبراهيم، مرجع سابق، ص 68 – ص161.

[43] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، الجز الأول، مرجع سابق، ص 25 - ص 27.

[44] عبد الله العروي، مرجع سابق، ص90 .

[45] سيغريد هونكة، شمس الغرب تسطع على الغرب(اثر الحضارة العربية في أوروبا)، دار الجيل، الطبعة الثامنة، 1993.

[46] مايكل هارت، الخالدون مائة وأعظمهم محمد رسول الله ﷺ،مكتبة المصري الحديث، بدون طبعة.

6. قائمة المصادروالمراجع:

- محسن محمد حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، مطبعة موكرياني، الطبعة الأولى، 2012.
- جيرار جينيت، طرائق تحليل السرد(حدود السرد)، منشورات إتحاد كتاب المغرب ، الطبعة الأولى،1992.
- بول ريكور، الوجود والزمان والسرد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999.
- عبد العليم عبد الرحمان خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر(سلسلة المنهجية الإسلامية)، الطبعة الثالثة،1996.
- عبد السلام أقلمون، الرواية والتاريخ ،دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2010.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، عفيف نايف حاطوم، دار صادر، الطبعة الثانية، 2010.
- جيرالد برانس، قاموس السرديات، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الثالثة، 2003.
- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005.
- جيرار جينيت، خطاب الحكاية(بحث في المنهج)، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 1997.
- Gérard Ginette, Figures 3, éditions du seuil, Paris, 1972.
- عبد الله إبراهيم، السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1992.
- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، 2002.
- تزفيتان تودوروف، الشعرية، دار توبقال، 1987.

- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي(دراسة في السردية العربية)،دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، 1998.
- محمد وهيبة، جغرافية المسعودي، دار المعارف،1995.
- سليمان بن عبد الله المديد السويكت، منهج المسعودي في كتابة التاريخ.
- سيغريد هونكة، شمس الغرب تسطع على الغرب(اثر الحضارة العربية في أوروبا)، دار الجيل، الطبعة الثامنة، 1993.
- مايكل هارت، الخالدون مائة وأعظمهم محمد رسول الله ﷺ، مكتبة المصري الحديث، بدون طبعة.
- شعيب حليفي، بلاغة الصورة في السرد (دينامية القراءة و التأويل)، الملتقى الدولي حول السرديات، المركز الجامعي بشار، نوفمبر 2007، الجزائر.
- حميد الحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، المركز الثقافي الغربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1991.